الفصل الثالث

بلاغة الإقناع
في السياق الغربي الحديث

المبحث الأول:

بيرلمان وانبعاث بلاغة الإقناع

1- إضاءة حول المشروع الحجاجي لبيرلمان

إذا كانت بلاغة الإقناع قد عرفت قرونا من الإهمال، أقصاها من دائرة الاعتبار المعرفي، فإن الرجوع الكبير لهذه البلاغة مدين تاريخيا لظهور **مصنف في الحجاج** لبيرلمان Ch. Perelman، وتيتكا L. Olbrechts Tyteca. وقد عرف بيرلمان كفيلسوف ودكتور في القانون اهتم في نشاطه المعرفي بالمنطق الصوري والفلسفة التحليلية، إلا أن دراساته المبكرة حول البلاغة والفلسفة ستقوده إلى التمييز بين المنطق الصوري الحديث المستند إلى الرياضيات، والقيم Valeurs أي المبادئ العامة التي تؤسس الخلفية الأخلاقية لتدبير الديمقراطيات المعاصرة (العدالة والمساواة والمسؤولية عن الأفعال). لذلك سيتزايد اهتمامه بأشكال الاستدلال العلمي، ومع تيتكا التي ارتبط تكوينها بعلم النفس الاجتماعي وبالاشتغال على القيم التي تحكم العلاقات الإنسانية وتنظم المبادلات الخطابية، سينكب بيرلمان على متابعة المنطق غير الصوري، والعكوف على دراسة النصوص والتقاليد الحجاجية ضمن مسح امتد عميقا إلى الحقبة اليونانية، أساسا متن أرسطو.

وضمن هذا المسار أنجب المؤلفان **مصنف في الحجاج**[1] سنة 1958، وهو "المعجم الحقيقي المجمل لكل أشكال الحجج وتأثيرها"[2]. ويعزو الباحث جورج فينو GeorgesVignaux مشروع بيرلمان في إحياء بلاغة الإقناع إلى عوامل سياسية ارتبطت بتأثره الشديد، وهو اليهودي البلجيكي، بالإبادة الجماعية التي تعرض لها الشعب اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية. هذه الإبادة التي كانت تبرمجها الخطب النارية لخطيب مرعب هو أدولف هتلر. مما جعل بيرلمان يقتنع بأن

(1) Ch. Perelman et L. Olbrechts Tyteca: la nouvelle rhétorique-traité de l'argumentation-T1, Paris, P.U.F, 1958.

(2) Georges Vignaux: L'argumentation du discours à la pensée, Paris, Hatier 1999, p. 7.

"الكلام غير المنضبط والكلام المستند إلى المطلق قد يقودان إلى اللاعقل وإلى التخريب والموت"[1]. هذه الحساسية لما كان يعتمل في أوروبا، حدت ببيرلمان منذ سنة 1934 إلى الكتابة عن "العشوائية في المعرفة"، عشوائية القول وعشوائية الفكر والإيديولوجيا.

وفضلا عن ذلك، فإن ظهور **مصنف في الحجاج** خلال سنوات الخمسينيات والستينيات، لا ينفصل عن سياق فترة الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي الاشتراكي والرأسمالي الغربي. وقد كان خطاب الأحزاب الشيوعية الأوروبية المهاجمة للديمقراطيات البورجوازية قويا ومشحونا، لحد رأى فيه بيرلمان صدى للخطابات التوتاليتارية السابقة. لقد بدا لبيرلمان أن ما أصبح مهددا هو "قيمة العدل داخل الممارسة الديمقراطية [وحسب هذا الفيلسوف] فلا عدل دون محاجة، ولا محاجة إيجابية أي منتجة دون تنظيم النقاش العمومي، أي ضبط الحجج التي تحكمه"[2]. لقد كان بيرلمان معنيا بقضية العقل العملي، أي "تحديد دور العقل في الممارسة"[3].

إن ظهور **مصنف الحجاج** لا يفسر فقط بهذه الاعتبارات السياسية، بل إنه نتاج لمتطلبات معرفية. فلقد تميز القرن العشرون إبيستميا بوصفه "قرنا للإشهار والدعاية"[4]، مما جعل الحضارة البشرية موسومة بـ"مهارتها المتطرفة في التقنيات الخاصة بالتأثير على الأشياء"[5]. وليس أنسب لاستراتيجيات التأثير من بلاغة الإقناع التي دافع بيرلمان عن انبعاثها وتطويرها.

ثم إن الاتجاه القوي نحو بلاغة الإقناع الذي جسده **مصنف في الحجاج**، كان إجابة معرفية عن مأزق المنطق الصوري وعجزه في الفكر المعاصر عن التعامل مع القضايا التي تنفلت من الاختزال الشكلي والحساب[6]. ما يؤكد ذلك أن الكتاب

(1) Ibid, p. 7.

(2) Ch. Perelman et L. Olbrechts Tyteca: la nouvelle rhétorique-traité de l'argumentation, op. cit, p. 8.

(3) Ch. Perelman: Justice et raison, Presses Universitaires de Bruxelles, 1963, p. 15.

(4) Ch. Perelman et L. Olbrechts Tyteca: traité de l'argumentation, op. cit, p. 6.

(5) Ibid, p. 11.

(6) Ibid, p. 3.

تزامن، في صدوره، مع مؤلف آخر ظهر في السنة نفسها بأوروبا 1958، وهو للباحث ستيفن إدلسون تولمين، خاص بموضوع الحجاج، وسماه صاحبه **وجوه استخدام الحجاج**، وقد نظر إلى هذا المؤلف بوصفه "محاولة لإصلاح المنطق"[1].

إن العودة إلى بلاغة الإقناع، وتطوير نظرية الحجاج في مشروع بيرلمان حمل وعيا حادا بمحدودية المجال الذي يغطيه المنطق الصوري، وبالتصلّب البرهاني للعقلانية الديكارتية. ومعلوم أن هذه العقلانية التي وسمت الفكر الغربي لأزيد من ثلاثة قرون، ظلت لا تعترف في مضماري المعرفة والحقيقة إلا بما يحمل صفات الضروري والبديهي، وبما تحكمه "يقينيات الحساب"[2]. ولقد اعتبر بيرلمان بأن هذا التصور الديكارتي قاد إلى حصر غير مبرر للمجالات الواسعة والممتدة للفكر الإنساني. وهذه المجالات التي لا تقوم على الضرورة والبداهة، هي ما يشكل موضوع الحجاج. إذ أن هذا الأخير يتعلق أساسا بالمحتمل. يقول بيرلمان في **إمبراطورية البلاغة**: "إننا نلاحظ أنه في الميادين التي يتعلق فيها الأمر بالمفضل والمقبول والمعقول، فالاستدلالات ليست استنباطات شكلية أو استقراءات... بل حجاجات"[3]. ولذلك فالحجاج مسار آخر للاستدلال يتصدى لفكرتي البداهة والحتمية، وينسجم مع خصوصيات العلوم الإنسانية القائمة على تعدد العقل والحقائق والأحكام.

ويحدد بيرلمان وتيتكا موضوع نظرية الحجاج في "دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة"[4]. وعليه فإن الانسجام الإيجابي مع الفروض والمواقف المطروحة هو محور الحجاج، فالغاية إذن هي إحداث التأثير العملي الذي يمهد له التأثير الذهني. وهكذا فإن الحمل على الاقتناع، إذ يتوسل بالخطاب يستعين بالعقل. لا يتعلق الأمر هنا بالعقل الحسابي، ولكن إن شئت بعقل نسبي ومتعدد.

إن الباحثين، وهما يطوران نظرية الحجاج، استنادا إلى المدونة البلاغية

(1) Manuel Maria Carrilho: rhétorique de la modernité, op. cit, p. 59.

(2) Ch. Perelman... Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 1.

(3) Ch. Perelman, l'empire rhétorique..., op. cit, p. 10.

(4) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 5.

القديمة، كانت عودتهما لافتة لأرسطو. لذلك فالحجاج لديهما يتقارب مع الجدل الذي فصل المعلم الأول معطياته في كتابه الطوبيقا Les Topiques. فالاستدلال في الحجاج كما في الجدل، يتم انطلاقا من الآراء المقبولة عموما. غير أن المؤلفين فضلا التقارب أكثر مع الخطابة، حيث يقولان: "الغاية من تقريبنا بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه"[1]. ولذلك، فالمستمع الذي كان مدار الخطابة القديمة يحتفظ بنفس الوضع المركزي في نظرية الحجاج. فالاستراتيجية الحجاجية تبنى على المستمع، والرهان قائم على دفعه للاقتناع. ومن ثم، فـ"بتغيير المستمع يتغير شكل الحجاج"[2]. ويوسع المؤلفان من مدلول المستمع، وهكذا فإذا كانت البلاغة القديمة تحصره في الحشد الملتئم وسط الساحة العمومية، فإن جمهور الحجاج، "يمكن أن يكون عاما حاضرا أو غائبا"[3].

وإذا كان الخطاب في البلاغة القديمة قد ارتبط باستعمال اللغة الشفوية، فإن الدور المعاصر للمطبعة قد قاد المؤلفين للاشتغال على النصوص المكتوبة. فضلا على أن المؤلفين لا يسعيان لقصر الحجاج على العموم، كما كانت تفعل الخطابة القديمة، بل يعتبران أن المحاج إذا أراد التأثير بفعالية على العقول، وجب عليه أن يتكيف مع مخاطبه. وقيمة الحجاج ترتفع بقدر كفاءة المستمعين. ولعل ذلك ما يبرز الأهمية الخاصة التي أفردها المؤلفان لتحليل الحجج الفلسفية.

إن نظرية الحجاج التي يتبناها بيرلمان وتيتكا عقدت صلات واسعة مع مباحث علم النفس التي تحكم السلوكين الفردي والجماعي في تفاعلهما مع الخطابات. ولذلك أولى مصنفهما أهمية للأطر النفسية كما الاجتماعية، ودورها في تحقيق التأثير الفعال للخطاب، يقولان: "فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها، ومحاولة لحيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية

(1) Ibid, p. 7.

(2) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 10.

(3) عبد الله صولة: "الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا)" ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية...، مذكور، ص307 .

والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير"[1].

يبدو إذن أن بيرلمان وتيتكا قد عمدا إلى إحياء البلاغة القديمة، ولكن في ثوب جديد Une nouvelle rhétorique هو الحجاج. إن أهم ما يميز هذه البلاغة حسب كريلهو Carrilho هو "مبدأ الانخراط"، "فما أصبح مهما ليس القيمة الشكلية للحجج ولكن طبيعتها العملية الإجرائية وفضاء استقبالها"[2]. لذلك، فالحقيقة أو الحقائق التي يقود إليها الحجاج غير ضرورية أو واحدة أو مفارقة، فهي نسبية ومتعددة ومقامية. وقد وقف بيرلمان وتيتكا في كتابهما، بشكل مفصل عند منطلقات هذا الحجاج، كما عرضا بتدقيق لتقنياته.

2- منطلقات الحجاج

لتحقيق الاقتناع، يستخدم المتكلم في سياق حجاجه مقدمات يبني عليها استدلاله. وهذه المقدمات تشكل موجهات حجاجية وحاملا للاتفاق، ومنها يكون الانطلاق. من هذه المقدمات:

1. **الوقائع**: وتمثل ما هو "مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس"[3] وهذه الوقائع فيها ما هو عياني، وهو "الشعبة الأكثر أهمية في المقدمات"[4]، وفيها المفترضة Supposés، أي الوقائع الممكنة أو المحتملة.
2. **الحقائق**: وتتعلق بالنظريات العلمية والتصورات الفلسفية والدينية المتعالية عن التجربة[5].
3. **الافتراضات** Les présomptions: هي أحكام قبلية أو آراء متصورة سلفا، وتكون موضع موافقة عامة، إلا أن التجاوب معها لا يصل حدوده القصوى إلا إذا قواها المسار الحجاجي[6]. والافتراضات تتحدد بالقياس إلى العادي أو المحتمل، وهما قيمتان تتغيران بتغير الحالات والأوضاع[7].

(1) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 18.
(2) Manuel Maria Carrilho: rhétorique de la modernité, op. cit, p59.
(3) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 89.
(4) Ibid, p. 91.
(5) Ibid, p. 92.
(6) Ibid, pp. 93-94.
(7) عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته...، مذكور، ص 309.

4. **القيم** Valeurs: تتدخل القيم كأسس للحجاج في الميادين القضائية والسياسية والفلسفية، وهي تستدعى لدفع المستمع نحو اختيارات معينة أو لتبرير هذه الاختيارات. والقيم ليست كونية لأنها ذات صلة بتطلعات مجموعات خاصة، وهي إما مجردة مثل العدل والحق، أو محسوسة مثل الوطن[1].

5. **الهرميات** Les hiérarchies: إن القيم درجات ومراتب، مما يعني خضوعها للهرمية والتراتب. فالعدل مثلا، قد يعتبر أفضل من قيم أخرى نبيلة. ولذلك فالترتيب استعمال حجاجي عملي للقيم.

6. **المعاني أو المواضع**[2] Les lieux، بالمعنى الأرسطي، أي المقدمات العامة التي يلجأ إليها المحاج لبناء القيم وترتيبها. إنها مخازن الحجج والأطر الناظمة لها. والمواضع أنواع:

أ - مواضع الكم Lieux de quantité: وهي المواضع المشتركة التي تقر أن شيئا يفضل شيئا آخر لأسباب كمية[3].

ب - مواضع الكيف lieux de qualité: وهي تتعلق بالأهمية التي يكتسبها شيء أو فعل معين مقارنة بأشياء وأفعال أخرى.

ج - مواضع أخرى، منها:

- مواضع الترتيب lieux d'ordre والتي تقر أفضلية السابق على اللاحق مثلا[4].

- مواضع الموجود lieux d'existant والتي تقر بأفضلية الموجود والواقعي على الممكن والمحتمل والمستحيل[5].

- مواضع الجوهر Lieux d'essence وتتعلق بـ"ما يجسد بشكل أفضل نوعا ما"[6].

تمثل المقدمات الست، التي حددها بيرلمان وتيتكا، الشروط الأساسية لإقامة

(1) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, pp. 100-101-102-103.
(2) Ibid, op. cit, p. 112.
(3) Ibid, p. 115.
(4) Ibid, p. 125.
(5) Ibid, p. 126.
(6) Ibid.

الحجاج وبناء مساره. وهذه المقدمات تشكل أطر موافقات Cadres des accords ينطلق منها الحجاج. وقد توسع المؤلفان في المسالك الخاصة التي يتم من خلالها اختيار هذه المعطيات أو المقدمات وتكييفها حجاجيا.

ومن ثم، فالمدونة التي يستقي منها المتكلم مقدمات حجاجه ومعطياته، غزيرة وشاسعة تتطلب انتقاء وتنظيما تكتسب بهما فعاليتها الحجاجية، ومناسبتها للجمهور الذي تتوجه إليه. ويعد "الإحضار" أو "الاستحضار" أهم وسيلة لاستدعاء عناصر المحاجة، وجعلها ماثلة بين أعين المخاطبين وتحيين حضورها في أذهانهم[1].

ويقر بيرلمان وتيتكا استنادا إلى جون بياجيه بالتأثير المباشر لتقنية الإحضار على الوجدان، فضلا عن نتائجها في حفز الهمة وتحريك الإرادة.

وإذا كانت المعطيات أو المقدمات تقدم في التصور البرهاني واضحة وأحادية الدلالة، ومن ثم فهي تؤول "من طرف الكل على نفس الشاكلة"[2]، فإن المعطيات في الحجاج تبقى ملتبسة حاملة لدلالات متعددة. ولذلك فالمتكلم ملزم، فضلا عن اختيار المقدمات، بتوجيه الحجاج نحو تأويل معين ينسجم ومقصديته، فيكون بذلك قد "قرن معطياته باختيار دلالي معين"[3]. لا يعني هذا، إقبارا للاختيارات الأخرى، فلا شيء يمنع تأويلات جديدة ومختلفة لأن "إمكانيات التأويل تبدو غير مستنفذة"[4].

والتكييف الحجاجي لا يرتبط فقط باستحضار المعطيات أو التوجيه التأويلي لها، بل يرتبط كذلك باستعمال النعوت والصفات. فإسناد صفة لموضوع ما يكشف عن موقف ووجهة نظر إزاءه، فضلا على أنه يوجه نحو الحكم المطلوب. إن التصنيف أو النعت إذن موقف وحكم.

وحسب بيرلمان وتيتكا فإن اختيار المعطيات وتكييفها حجاجيا لا ينفصل عن طريقة عرضها، فالحجاج لا يكون فعالا بمعطياته فقط ولكن بصيغته. وإذا كان تاريخ البلاغة الطويل بعد أرسطو، قد اعتمد الفصل بين المضمون والشكل

(1) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 155.
(2) Ibid, p. 161.
(3) Ibid.
(4) Ibid, p. 163.

موليا عناية مركزية للمظاهر الأسلوبية لحد حول البلاغة إلى حذلقات، فإن مؤلفي **مصنف في الحجاج** يرفضان الفصل بين الشكل والمضمون، كما يرفضان دراسة البنيات والوجوه الأسلوبية بمعزل عن الغاية الحجاجية التي تضطلع بها[1].

ومن طرائق عرض المعطيات ألا يلجأ المحاج إلى المقدمات المبتذلة، والتي من فرط اشتهارها أضحت معلومة لدى كل الناس، لأن "ذلك قد يبدو ثقيلا"[2]، غير محفز لانتباه المستمعين.

وفي سياقات حجاجية أخرى، وضمن المقدمات التي تثير أكبر قدر من الخلاف/ النقاش، لا بد من عرض بطيء يقوم على تقنية "الإلحاح والتركيز"[3]. بحيث لا تكفي مجرد الإشارة أو التضمين أو التناول العجل، بل لا بد من التكرار واستحضار التفاصيل وإيراد الحكايات لرفع درجة حضور المعطى في ذهن المخاطب، توخيا للتأثير عليه.

وفضلا عن ذلك، فإن ما يثير حضور الحدث في ذهن المتلقي قد يكون هو ذكر مكان وزمان الأحداث[4]، أو الاستعانة بالألفاظ الخاصة بدل العامة أو الحسية بدل المجردة، فـ"متى كانت الألفاظ خاصة، كانت الصورة أكثر حيوية، ومتى كانت الألفاظ عامة، كانت الصورة باهتة"[5]. وليست هذه قاعدة عامة، لأن استعمال نوع معين من الألفاظ يبقى مشروطا بالمقام المناسب تجنبا لأي أثر معاكس. وهكذا فإن اختيار الألفاظ في الخطاب والانتقاء بينها وتبني مرادفات بعينها ليس قضية شكلية، بل هو ترجمة دائما لمقصدية حجاجية محددة ولشروط المناسبة المقامية[6].

ولا يقتصر الحجاج حسب بيرلمان وتيتكا على الألفاظ المنزاحة عن اللغة العادية، فلهذه الأخيرة كذلك قيمة حجاجية. ولذلك فلا وجود لأي اختيار محايد[7]، بمعنى ألا وجود لخطاب وصفي خال من الحجاج، فكل كلام محمل.

(1) Ibid, p. 192.

(2) عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته...، مذكور، ص 317.

(3) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 194.

(4) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 198.

(5) Ibid.

(6) Ibid, pp. 200-201.

(7) Ibid, p. 200.

وهكذا فحتى في التعبير العادي، هناك غالبا اختيار للألفاظ ومخطط للحجاج[1].

ويقدم المؤلفان جردا للأشكال التعبيرية التي تضطلع بدور حجاجي في عرض المعطيات، وقد سمياها بموجهات التعبير Modalités d'expression، ومنها "النفي"، وهو لا يتدخل إلا حينما نكون بصدد الحجاج لأنه "رد على إثبات فعلي أو محتمل حصوله من قبل الغير"[2]. وفضلا عن النفي، تنطرح أمام المحاجج إمكانات واسعة للربط بين معطياته. وتقنيات الربط مثل (الواو، لكن، أو، إذن...) لا تترجم فقط العلاقة المنطقية، بل هي اختيارات في الترتيب والتعليق والإلحاق لا تنفصل عن مقصد المخاطب. فبواسطة هذه التقنيات "فإن الخطيب يقود المستمع بطريقة أكثر فعالية في الاتجاه الذي يريد له قبوله"[3].

وعموما، فالموجهات بالمعنى اللساني، حسب المؤلفين أربعة[4]:

أ - الموجه الإثباتي وهو ملازم لأي حجاج.

ب -الموجه الإلزامي Injonctive ويتمظهر لغويا من خلال صيغة الأمر.

ج - الموجه الاستفهامي Interrogative، وهو ذو أهمية خطابية كبرى.

د - الموجه بالتمني Optative، وهو يناسب بشكل أفضل المعايير العامة، ويعبر عن آراء مجموعة ما أو أفكارها.

تنضاف إلى هذه الموجهات، صيغ لغوية أخرى ذات أدوار حجاجية كاستعمال الأزمنة للتأثير على المستمع، وتوظيف الضمائر لتنتيج علاقات مقصودة والتوجيه نحو أحكام مستهدفة[5]. فضلا عن اعتماد القوالب المكرورة Les clichés، وهي حسب المؤلفين، ذات صلة بخصائص الوسط الثقافي، وتعتمد المحاكاة أو استعمال صيغ معروفة. وترصد في الشعر كما في السياسة... لإيقاع المصادقة وتحقيق الاتفاق، لذلك اعتبرها المؤلفان "وسيلة سهلة للاتحاد مع المستمعين (...) ولتحقيق السير الجيد للنقاش"[6]. هذا الدور نفسه تضطلع به الحكم والأمثال، إذ

(1) Ibid, p. 207.

(2) Ibid, p. 208.

(3) Ibid, pp. 210-212.

(4) Ibid, pp. 214-216.

(5) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, pp. 216-219.

(6) Ibid, p. 223.

أن التوسل بها قرينة كبرى على الاتفاق. وهي بحكم انتشارها الواسع تشكل منطلقا قويا للاستدلال في الخطاب، كما تمنح هذا الأخير طابعا أخلاقيا[1].

ولا يستثني المؤلفان الصور البلاغية من فاعلية الحجاج، فهي ليست مجرد زخارف أو تنميقات تزين الخطاب. فمن شأنها أن تؤثر في المواقف وتغيرها، لذلك انتهى بيرلمان في **إمبراطورية البلاغة** إلى الإقرار "إذا لم تدمج هذه الوجوه في بلاغة إقناع، فإنها لا تصبح وجوها بلاغية بل حذلقات"[2].

3- التقنيات الحجاجية

انتهى بيرلمان وتيتكا إلى استقصاء واسع لأهم الطرائق الموظفة في الخطاب الحجاجي. وفيما يلي عرض مركز وبتصرف لهذه الطرائق.

- **الحجاج بالتناقض وعدم الاتفاق** *Incomptabilité*، ويتعلق التناقض بالأنظمة الصورية، ويقصد به أن تكون هناك قضيتان إحداهما نفي للأخرى. أما عدم الاتفاق فمجاله حجاجي ويتمثل في وضع ملفوظين على محكي الواقع والمقام، مما يحتم اختيار إحدى الأطروحتين واطراح الأخرى[3]. وإذا كان التناقض المنطقي يدرك صوريا نظرا لأحادية الدلالة في اللغة الرمزية، ويدرك ضرورة لتعاليه عن الأفراد والظروف، فإن الملفوظات في اللغة الطبيعية، بما تحيل عليه من قضايا، قابلة لتأويلات مختلفة. وهذا الاختلاف لا يعني العبث أو عدم الانسجام، لأن كل تأويل ينزع نحو اختيار معين يبرره ويقصي بوعي الاختيارات الأخرى. ولذلك فعدم الاتفاق في الحجاج مصدره ظروف الخطاب، وطبيعة الأشياء موضوع هذا الخطاب، وقرارات المشاركين فيه. والقرار الإنساني محمل دوما بالإمكان والتعدد وعدم التوقع... لكنه على الدوام مبني ومبرر وإلا تحول إلى هزء[4].
- **الحد والتعريف**[5]، إن تحديد الموجودات والأحداث والمفاهيم لا يقوم على

(1) Ibid, p. 224.

(2) Ch. Perelman...: l'empire rhétorique..., op. cit, p. 13.

(3) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 270.

(4) Ibid, p. 276.

(5) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, pp. 282-293.

الاعتباط أو البداهة، بل هو قائم على التبرير الحجاجي. ذلك لأن التعريف يحرك العملية الاستدلالية ويقدم اختيارات دون أخرى، كما يشكل حكما على الأشياء أو تقويما لها. والتعريف قد يكون كليا شاملا أو جزئيا، وهو بشقيه أربعة أنواع:

- تعريف معياري تحكمه القاعدة وعمومها.
- تعريف وصفي يرتبط بسياق خاص.
- تعريف تكثيف، يؤشر على العناصر الأساسية في المعرف.
- تعريف مركب يجمع بين هذه الأنواع الثلاثة.

- **الحجج القائمة على العلاقة التبادلية**، وهي تخص تعلق حالات أو أوضاع بعضها ببعض، وتمديد حكم ما أو معالجة معينة من حالات سابقة إلى حالات لاحقة[1]. ويمثل عبد الله صوله[2] لذلك بقول الرسول (ص): (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، أو قول القائل: (إذا كانت تبدو لكم تقاليد أهل الصين غريبة، فإن تقاليدكم تبدو لهم كذلك).
- **حجج التعدية** *Arguments de transitivité* وهي تميز بعضا من العلاقات التي تتيح الانتقال من إثبات أن العلاقة الموجودة مثلا بين (أ) و(ب) من ناحية، و(ب) و(ج) من ناحية أخرى، هي علاقة واحدة تؤدي إلى الاستنتاج بأن هذه العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و(ج)[3].
- **الحجج بإدماج الجزء في الكل أو تقسيم الكل إلى أجزائه**، فالحجج الأولى تعني أن "ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء"[4]. أما الحجج الثانية فتستهدف الاستدلال على وجود المجموع من خلال تعدد أجزائه.
- **الحجاج بالمقارنة**، فحينما تتقابل الموضوعات، ويطرح التمييز بينها والاختيار فيها، لا بد من المقارنة. هذه الأخيرة تقوم على نوع من القياس وتقود إلى

(1) Ibid, p. 297.

(2) عبد الله صولة: "الحجاج، أطره ومنطلقاته..."، مذكور، ص 327.

(3) Ch. Perelman...: Traité de l'argumentation..., op. cit, p. 305.

(4) Ibid, pp. 311-325.

التقويم، تقويم الأشياء والموضوعات في ضوء ما يقابلها أو يماثلها أو ينافسها[1].

- **الحجاج بالوصل السببي**، فالعلاقات السببية علاقات حجاجية، تربط بين الأحداث وتفسر العلاقة بينها. وغاية هذه الحجة تقويم الأحداث والأشياء. ومعلوم أن التقويم حكم موجه للسلوك والعمل.
- **الحجاج بالشخص وأعماله**، فالتداخل قائم بين العمل/ الخطاب والشخص. ومعرفة الشخص سياق يعين على فهم عمله وعلى إمكان تقويمه. ولذلك فعلم الأخلاق والقضاء يعتمدان مفهومي "الإنسان وأعماله" من حيث هما مفهومان مترابطان لا فكاك بينهما[2].
- **حجة السلطة** *Argument d'autorité* وهي حجة تستمد قوتها الإقناعية من النفوذ الذي يمتلكه مصدرها. فأعمال أشخاص معينين أو أحكامهم قد تكون حجة دامغة على صحة أطروحة ما. وهذه السلطة قد يمثلها الفلاسفة أو الأنبياء أو الأدباء أو "الإجماع" أو "الرأي العام" أو "العقيدة"[3].
- **الحجج بالمثل** *L'exemple* **والاستشهاد** *Illustration* **والتمثيل** *Analogie*، فالمثل يستخدم في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدمات، وهو يتيح المرور من حالة خاصة إلى حالة خاصة أيضا، وقد يقود المثل وتواتره إلى تأسيس قاعدة عامة[4]. وإذا كان المثل يسبق القاعدة أو الحكم، فإن الاستشهاد لاحق عليهما، لأن غايته التصديق وتوضيح القول العام وتقوية حضوره في الذهن. أما التمثيل فيشكل أداة حجاجية لأنه يقوم على إبراز تشابه العلاقات، وإن كان مصدرها من مجالات مختلفة[5]، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ...﴾ [سورة العنكبوت الآية 41].

---

(1) Ibid, p. 326.
(2) عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته...، مذكور، ص 334.
(3) نفسه، ص 335.
(4) نفسه، ص 337.
(5) نفسه، ص 339.

المبحث الثاني:

الحجاج في اللغة: ديكرو وأنسكومبر

1- إضاءة حول مشروع الحجاج في اللغة

تستند أعمال ديكرو DUCROT وأنسكومبر ANSCOMBRE مرجعيا إلى الإسهامات التداولية التي ميزت نظرية الأفعال اللغوية عند أوستن AUSTIN وسورل SEARLE، كما تستند إلى بعض أبحاث إميل بنفيست BENVENISTE حول التلفظ، وإلى حوارية باختين BAKHTINE. وتمثل أعمال هذين الباحثين تيارا تداوليا مختلفا قارب الحجاج من زاوية مغايرة. وهكذا فإذا كان بيرلمان وتيتكا قد اشتغلا على هذا المبحث برؤية بلاغية، وإذا كان كريز GRIZE وبورل BOREL قد صدرا في دراستهما للموضوع عن ضوابط المنطق الطبيعي، فإن نظرية الحجاج في اللغة التي اعتمدها ديكرو وأنسكومبر نظرية لسانية "تهتم بالوسائل والإمكانات اللغوية التي تمدنا بها اللغات الطبيعية لتحقيق بعض الأهداف والغايات الحجاجية"[1].

إن هم الباحثين ليس بناء الحجاج على الأسس الفلسفية أو المنطقية أو البلاغية، ومن ثم لم ينشغلا بوقائع الإقناع، بل بحثا "الدور الحجاجي الذي يلعبه الكساء اللغوي لهذه الوقائع"[2]. ولذلك انتهيا إلى أن اللغة تحمل في طياتها بعدا حجاجيا كامنا في صميم بنيتها الداخلية مسجلا فيها وليس عنصرا مضافا إليها. ومن ثم فمعنى الأقوال لا ينفصل عن طابعها الحجاجي.

2- التداولية المدمجة Pragmatique intégrée ودور الحجاج فيها

يرى الباحثان استنادا إلى هذه النظرية أن التداولية (شروط الاستعمال التخاطبي

(1) أبو بكر العزاوي: "البنية الحجاجية للخطاب القرآني، سورة الأعلى نموذجا" (مجلة المشكاة)، العدد 19، وجدة 1994، ص 124.

(2) J-C Anscombre et Oswald Ducrot: "Argumentativité et informativité", Dans: De la métaphysique à la rhétorique, op. cit, p. 79.

والمقامي للملفوظات)، لا توجد إلا مدمجة في الدلالة، فهي ليست مخرجا أخيرا لها. ومن ثم يرفضان التصنيف التراتبي/ الخطي الذي تعتمده النظريات اللسانية التقليدية في مقاربتها للملفوظات. بحيث تقسمها إلى مستويات متتالية تبدأ بالتركيب وتتبع بالدلالة وتنتهي بالتداول. إن هذه المكونات ليست منفصلة حسب الباحثين، فكل ملفوظ يحمل بشكل جوهري وداخلي مؤشرات تلفظية تمنحه معناه وتفسر اقترانه بهذا المعنى دون غيره. كل ملفوظ، بتعبير موشلر يحمل في صورته مسارا لولوج دلالته ودليلا لتأويله. فحينما يقول القائل: - لقد نسيت، مرة أخرى، أين وضعت مفاتيحي؟ فإن التداولية المدمجة تقر أن هذه الجملة تنطوي على طلب إخبار، إخبار بمكان المفاتيح دون أن تصرح به[1].

إن هذا الطرح اللساني الذي لا يفصل بين البعد التداولي والبعد الدلالي في الخطاب جعل ديكرو يؤكد أن "معنى أي ملفوظ، وحتى في الحالة التي نقدم فيها للكلمة مفهومها الأكثر ضيقا - أي الأكثر نحوية - لا يمكن أن يوصف دون استحضار مقصديات معينة لتلفظه"[2].

تبعا لذلك، ينفتح الحاجز بين الدلالة والتداولية، لأن المعنى مرتبط ضرورة بسياق تلفظ معين وبوظائف تخاطبية محددة. بعبارة أخرى، تشكل التداولية المدمجة، "النظرية الدلالية التي تعطي الأهمية الأساس للمعطيات التداولية في إطار المعنى"[3].

وفق هذا التصور التداولي، فإن مهمة اللغة ليست الإخبار فقط، فهي ليست مرصودة لوصف الأشياء، وتمثيل الواقع فحسب، ولكنها تحقق أعمالا لغوية. أي أنها ذات قوة إنجازية تحدد مواقف وتعين حالات ومقصديات. مما يعني أن اللغة تتضمن بشكل داخلي "مجموعة من الإجراءات الخاصة التي تسمح بإقامة تنوع كبير في العلاقات الإنسانية... ولا يمكن إذ ذاك أن تكون للغة وظيفة واحدة هي

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: éléments pour une analyse pragmatique du discours, Paris, Hatier – crédif, Août 1985, p. 75.

(2) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 8.

(3) أحمد كروم: الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، دجنبر 2000، ص 189.

نقل المعلومات. إن الأمر يتعلق بقواعد لعبة أكبر، لعبة تمتزج بالوجود اليومي بشكل واسع، لعبة تشجع اللقاء بين الأفراد، وفي الوقت نفسه تضبط إجراءه"[1].

وإذا كانت الظواهر التداولية منغرسة في المستوى اللساني العميق للأقوال، فإن الحجاج وهو ظاهرة تداولية، يعد عند ديكرو وأنسكومبر مكونا من مكونات البنية اللغوية، تؤشر عليها تعليمات هذه البنية وتوجيهاتها. فالحجاج يتم إذن داخل اللغة. ومن ثم، هذه النظرية التي أنشأها هذان الباحثان، والموسومة **بالحجاج في اللغة**، فالخطاب التلفظي ينطوي وجوبا على خاصية حجاجية مباطنة له، بتعبير ديكرو "إن الملفوظ ينطوي في ذاته على إشارة للطابع الحجاجي للمحمولات التي تشكله"[2].

إن هذا الحجاج الخطابي لا تحدده الاعتبارات المنطقية والخارجية، بل اعتبارات مثبتة داخل نسيج الأقوال وفي العلاقات بين مكوناتها. من هنا ميز ديكرو بين الاستدلال العقلي Raisonnement والحجاج Argumentation. فالأول مرتبط بالمنطق، والثاني مداره على الخطاب. والخطاب يكتسي حجاجيته في قدرته على "أن يفرض على المخاطب نوعا محددا من النتائج، فكل كلام يكون دعائيا في عمقه"[3]. إذ من شأنه أن يقود المخاطب إلى نتيجة معينة أو يصرفه عنها. ولأن ديكرو يعتبر الحجاج نظاما داخليا للخطاب، فإن هذا النظام يحدد ترابط عناصر الخطاب وتناميها، بحيث يبدو الخطاب سلسلة من المكونات التي تلبي اشتراطات محددة، وتشير إلى مظاهر الاستمرار المحتملة، كما "توجه المكون اللاحق في هذا الاتجاه أو ذاك"[4].

إن الوظيفة الحجاجية التي تشكل وظيفة أولية في اللغة، وليست استعمالا ثانويا، تقتضي حسب ديكرو وأنسكومبر "إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل

(1) أبو بكر العزاوي: "سلطة الكلام وقوة الكلمات"، مجلة المناهل، السنة 25، الرباط، صفر 1422 ماي 2001، ص 135.

(2) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 16.

(3) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 12.

(4) Ibid, p. 10.

الخطاب"[1]. فيكون الحجاج في اللغة إذن هو "إنتاج متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج"[2]. بهذا الاعتبار، فإن الحجاج تؤديه مكونات لغوية هي روابط أو عوامل أو صيغ تصلح، فضلا عن محتواها الإخباري، لـ"إعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المخاطب في هذا الاتجاه أو ذاك"[3].

وتنهض نظرية الحجاج في اللغة على جملة من المفاهيم تفسر اشتغالها، وهذه المفاهيم هي (العلاقة الحجاجية والمواضع الحجاجية والاتجاه الحجاجي والقوة الحجاجية والسلم الحجاجي).

3- العلاقة الحجاجية

إن الحجاج في هذه النظرية علاقة دلالية تربط بين الأقوال. بحيث يقوم الاشتغال الحجاجي على تقديم المتكلم لقول معين يعتبر حجة، يستهدف من خلاله حمل المخاطب على القبول بقول آخر، يعد نتيجة سواء كان هذا القول/ النتيجة صريحا أو ضمنيا. ولا تكتسي هذه الأقوال طبيعتها الحجاجية إلا ضمن سياق معين "فما يمكن أن يكون حجة في هذا السياق، قد لا يكون كذلك في سياق آخر، حتى ولو تعلق الأمر بنفس المحتوى القضوي أو بنفس الحدث Fait المعبر عنه داخل القول"[4].

إن العلاقة إذن بين الأقوال/ الحجج والأقوال/ النتائج تسمى العلاقة الحجاجية، وهي علاقة خطابية لا يحكمها الاستلزام المنطقي بل تسيرها وتؤطرها المواضع الحجاجية، فما هي هذه المواضع؟

4- المواضع الحجاجية

حسب ديكرو وأنسكومبر فإن الانتقال الخطابي من ملفوظ/ حجة إلى ملفوظ/ نتيجة، يتم بتطبيق جملة من المبادئ العامة، اختارا لها تسمية مواضع مستحضرين

(1) أبو بكر العزاوي: "البنية الحجاجية للخطاب القرآني"، مذكور، ص 125.
(2) نفسه، ص 125.
(3) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 15.
(4) أبو بكر العزاوي: "سلطة الكلام وقوة الكلمات"، مذكور، ص 142.

مفهوما أرسطيا شهيرا TOPOI. والمواضع عندهما، هي عماد الحجاج والخلفية التي ينبني عليها النشاط الحجاجي. إنها قواعد عامة مقبولة جماعيا (Communément admises)، تعكس "الجهد المبذول من طرف المتكلم لتبرير وضعية ما أو موقف أو فعل، وجعله مقبولا"[1]. الأمر الذي يعني أن كل علاقة حجاجية تتطلب وجود موضع بين الحجة والنتيجة أي مسارا مبررا يعتمد في الانتقال الحجاجي، لذلك، فـ"اختيار جملة ما في مقام معين دون غيرها يعني اختيارا لتطبيق موضع ما دون غيره"[2].

إن المواضع إذن قواعد عامة تجعل من الممكن إنجاز حجاجات خاصة، وهي تنتمي للمعاني المشتركة Les lieux communs، أي أنها تحظى بقبول جماعي في مجتمع وحقبة معينتين. وهذه المواضع ذات طابع تدرجي، إذ لها أشكال تتحدد بأكثر أو أقل ضمن منطقة حجاجية محددة[3]. هذه الخصائص تجعل الموضع قابلا للنقض والتبكيت، ومن ثم قوته التي تجعله مخالفا لمبادئ الاستدلال المنطقي. واختيار المواضع يعني اختيار اتجاه حجاجي معين Orientation argumentative. فما هو الاتجاه الحجاجي؟

5- الاتجاه الحجاجي

إذا كان الحجاج يقتضي تسلسلات خطابية معينة وأشكالا من التتابع، تقود إلى استنتاجات، فإن التوجيه الحجاجي يعني إسناد اتجاه معين لقول ما بغاية بلوغ نتائج محددة. ولا يخفى أن هذا التوجيه الذي يوسع أو يضيق الاحتمالات الحجاجية ليقودها في اتجاه معين، تحدده البنية اللغوية للخطاب. هذا الأخير يتضمن قرائن حجاجية Marqueurs argumentatifs تشكل وسائل لغوية مختلفة يوظفها المتكلم لتوجيه خطابه وتنظيم العلاقات في حجاجه.

6- القرائن الحجاجية Marqueurs argumentatifs

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conservation..., op. cit, p. 60.

(2) J-C, Anscombre et Oswald Ducrot: "Argumentativité et informativité", op. cit, p. 88.

(3) شكري المبخوت: "نظرية الحجاج في اللغة"، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية...، مذكور، ص 380.

وهي نوعان:

أ - **العوامل الحجاجية** Les opérateurs argumentatifs: وهي عناصر لغوية إسنادية نحوية أو معجمية، تربط بين مكونات القول الواحد كالحصر والنفي والشرط... ووظيفتها هي حصر الإمكانات الحجاجية Potentialités لمحتوى الملفوظات وتحويلها، مثل صيغ: peu/Presque في اللغة الفرنسية[1].

ب -**الروابط الحجاجية**: هي مكونات لغوية تداولية تربط بين قولين (أو أكثر) داخلين في استراتيجية حجاجية واحدة، بحيث تسمح بالربط بين المتغيرات الحجاجية (بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج). وهي صنفان:

- روابط مدرجة للحجج مثل (لأن، لكن...).
- روابط مدرجة للنتائج مثل (إذن، أخيرا...).

وعموما، فإن العلاقة بين الحجة والنتيجة ليست اعتباطية، بل هي ناجمة عن توجيه تحكمه المشيرات اللغوية الحجاجية.

7- القسم الحجاجي La classe argumentative

حسب ديكرو فإن المقصود بالقسم الحجاجي، هو أن يعمد المتكلم في مقام خطابي معين إلى وضع قولين (ق1، وق2) يعتبرهما حجتين تخدمان نفس النتيجة[2]. ومن ثم، فإن القسم الحجاجي يقوم على تضافر الحجج لخدمة استراتيجية واحدة. ويشير ديكرو إلى أن القسم الحجاجي ذو طبيعة نسبية لأنه يتغير بحسب الوضعية التي يتلفظ فيها المتكلم (الوضعية الإيديولوجية والاجتماعية والزمانية والمكانية...) ولأنه محكوم بطبيعة النتائج التي يخدمها، فمتى تغير اختيارها تغير القسم الحجاجي[3].

8- القوة الحجاجية La force argumentative

إن الحجج المنتمية لنفس القسم الحجاجي تتفاوت لأنها ترتبط فيما بينها

(1) J-C Anscombre, et O, Ducrot, "L'argumentation dans la langue", Langages, N°42 Didier Larousse, juin 1976, pp. 8-9.

(2) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 17.

(3) Jacques Moeschler, et Anne Reboul: Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Seuil, Octobre 1994, p. 281.

بعلاقة تراتب. ففيها حجج قوية وحجج ضعيفة. وهذا التدرج في الحجج هو ما يكسب الحجاج في اللغات الطبيعية إمكاناته الغنية والواسعة ويجعله مخالفا للبراهين المنطقية والرياضية. فاعتماد الحجاج على الحجة، وليس على الدليل البرهاني. والحجة كما أقر ديكرو "تؤكد النتيجة ولا تفرضها"[1] ما دام الفرض يلغي التعدد كما التفاوت.

إن العلاقة التراتبية بين الحجج واختلاف درجات قوتها سيقود ديكرو إلى تمثيل هذه العلاقة ضمن ما سماه بالسلم الحجاجي.

9- السلم الحجاجي: Echelle argumentative

يقول ديكرو "إن أي حقل حجاجي ينطوي على علاقة ترتيبية (لحجج) نسميه سلما حجاجيا"[2] مما يعني بأن الحجج حينما تتفاوت ضمن نفس الحقل الحجاجي تكون سلما حجاجيا. وقد مثل ديكرو لهذا السلم بالخطاطة التالية:

r النتيجة

حيث ترمز 'p للحجة الأقوى 'p

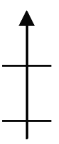

حيث ترمز p للحجة الأقل p

ولتحليل هذا المفهوم وقف ديكرو عند نعوت "حالة الجو"، وتتبع بعض المشيرات الكمية (Petit-grand)، كما شغل بعض الروابط الحجاجية (Même, Mais, Presque...).

وفي إجمال لافت ومبدع لإسهامات ديكرو، حدد الدكتور طه عبد الرحمن السلم الحجاجي بكونه "مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزودة بعلاقة ترتيبية ومستوفية للشرطين التاليين:

- أن كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم من

(1) Oswald Ducrot: les échelles argumentatives, op. cit, p. 17.

(2) Ibid, p. 18.

القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.

- أن كل قول في السلم كان دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى"[1].

وباستعارة الأمثلة التي اعتمدها الدكتور طه عبد الرحمان، يمكن اعتبار الأقوال الثلاثة الآتية:

- حصل زيد على الشهادة الابتدائية.
- حصل زيد على الشهادة الثانوية.
- حصل زيد على شهادة الإجازة.

حججا تشكل سلما، نتيجته/ مدلوله كفاءة زيد العلمية.

يتضح إذن، من خلال السلم الحجاجي أن الحجج ليست مطلقة كما أنها لا تتساوى بل تتدرج قوة وضعفا، مما يعني أن "المحاجة [...] لا تتحدد بالمحتوى الخبري للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون، وإنما هي رهينة اختيار هذه الحجة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محددة"[2].

(1) طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مذكور، ص ص 104-105.
(2) شكري المبخوت: "نظرية الحجاج في اللغة"، مذكور، ص 370.

المبحث الثالث:

ميشال ماير أو الحجاج بوصفه مساءلة

1- إضاءة حول مشروع ميشال ماير

يشغل ميشال ماير منصب أستاذ في جامعة "بروكسيل"، ومديرا للمجلة الدولية للفلسفة. وهو كذلك مؤسس ورئيس للمركز الأوروبي لدراسة الحجاج. وعلى غرار أقطاب المعرفة الإغريقية القدامى، يتداخل لدى ماير الاهتمام الفلسفي والعلمي بالاهتمام البلاغي. وإلحاحه على الاتصال بين هذين المجالين، يجد تأسيسه في اقتناعه بأن اللوجوس Logos يعني "اللغة والعقل"[1]. أكثر من ذلك، فإن المعرفة الحديثة، وميشال ماير أحد المنشغلين بمصيرها، لا يمكن أن تتجاهل التطور الهائل الجاري في الأبحاث اللسانية والبلاغية، بل إنه يعتقد أن المصدر الثاوي وراء البروز القوي والجديد للبلاغة في القرن العشرين، يعود إلى أزمة العقلانية الأوروبية. لذلك يصبح اعتبار المكون البلاغي ضرورة في أي تجاوز لهذه الأزمة[2].

2- المشروع الفلسفي لميشال ماير

ينطلق ماير في مشروعه الفكري من أن العقلانية الأوروبية عرفت انهيارات متتالية منذ مطلع القرن العشرين، قادتها إلى العدم أو التشييء تارة، وإلى الحرب تارة أخرى. ومرد ذلك في تصوره إلى انبناء هذه العقلانية على أسس المقتضى والحكم وعدم التناقض، والتي انغرست في صلبها منذ أرسطو. وعلى الرغم من أن المشروع الديكارتي قد قدم نفسه بمثابة تجاوز للأرسطية. وبوأ "الذات المفكرة" موقع الضامن والمكون لعملية التفكير، فإن هذه الذات، سواء مع ديكارت أو كانط

(1) Michel Meyer: De la problématologie, philosophie, science el langage, paris, le livre de poche, 1994, p. 231.

(2) Michel Meyer: "Pour une anthropologie rhétorique", Dans: De la métaphysique à la rhétorique..., op. cit, pp. 128-129.

ظلت متعالية، تلغي أي مساءلة، وتعطي للوجوس شكل المقتضى. وحتى الشك في النسق الفلسفي الديكارتي ليس إلا "صيغة إثباتية للتفكير"[1]. فكيفما كان القول (الخطاب)، وكيفما كانت المعرفة، فإن "العودة تكون للذات وهويتها الكاملة"[2].

إن العقلانية الأوروبية ظلت مشدودة إلى "وهم الذات الخالصة"[3]، أي إلى أوهام الانسجام والإطلاقية والاكتمال، لذلك عرفت أزمتها. ولقد فضحت أنساق فكرية عديدة، وفي صلب الثقافة الأوروبية نفسها هذه الأوهام. فميشيل فوكو سلط الضوء على المناطق المحجوبة والمسكوت عنها في هذه الحضارة (الجنون والسجن والجنسانية)، وكشف جاك دريدا عن فكر الاختلاف الذي يفضح أحادية العقل الغربي. كما أن البنيوية قزمت هذه الذات المتعالية لتجعلها مجرد عنصر تزاحمه عناصر أخرى...

وعيا إذن من ميشال ماير بهذه الأزمة في العقلانية الأوروبية، فإنه ينتدب مشروعه الفلسفي لتجاوزها. والبديل الذي يطرحه ماير يتحدد في أن تستعيد الفلسفة وظيفتها الأولى (المساءلة)، وأن تسترجع طابعها المشكلي/الإشكالي. وهكذا ففي سنة 1986، سيعطي ميشال ماير في كتابه De la Problématologie لأفكاره هذه شكل وقوة الموقف الفلسفي، بحيث اعتبر أن السؤال أصل الفلسفة وعنه نشأت. لذلك أقر أن ممارسة الفلسفة تعني الاستشكال. الأمر الذي يعني الابتعاد في المعرفة عن المعيار القضوي Le critère propositionnel*، وعن الأجوبة القبلية. فالمساءلة والاستشكال هما اللذان يفتحان للفلسفة طريق البحث والاكتشاف.

لا يعتزم ميشال ماير إحداث القطيعة في الفكر الأوروبي، ولكنه يتوخى تصحيح مسار هذا الفكر، بتطوير مبدأ الاستدلال فيه[4]، لتصبح الفلسفة عنده حسب تعليق مانويل ماريا كاريلهو "حجاجا ينفلت من النموذج التبريري للقضوية propositionalisme، ويستوي بالأحرى مع النموذج البلاغي، الذي يتموقع فيه

(1) Ibid, p. 124.

(2) Ibid.

(3) Michel Meyer: "pour une anthropologie rhétorique", Dans: De la métaphysique à la rhétorique..., op. cit, p. 129.

(4) Ibid, pp. 138-140.

النشاط [الفكري] ضمن دائرة المحتمل"[1].

هكذا فإن التفكير عند ميشال ماير يعني طرح الأسئلة، والقدرة على الاستشكال. وحتى تكون هذه الصيرورة منتجة، يرسم ميشال ماير المسافة بين الأسئلة والأجوبة. فهذه الأخيرة ليست جاهزة قبلية، أو تحصيل حاصل، إنها اكتشاف، ولذلك فـ"الجواب لا يعني إغلاق البحث"[2]. ثم إن الأسئلة هي غير الأجوبة، وإلا كان الفكر حلقة مفرغة على غرار ما يتم في الاستنباط الشكلي. إن اختلاف الأسئلة عن الأجوبة، يسميه ميشال ماير: "الاختلاف الإشكالي La différence problématologique"[3].

بهذا الطرح الجديد، يتجاوز ميشال ماير الإرث الكلاسيكي ليجعل من العقلانية حركة دائمة للسؤال/ الاستشكال، يقول موضحا ذلك "إن تأصل المساءلة [في الفكر] يقطع [...] مع الحاجة للمطلق أو لمعرفة قضوية قاطعة. إن الإقرار بالمساءلة كأساس يعني الإقرار ونهائيا بأن الأسئلة وحدها هي الأصل، مما يعني انفتاحا متعددا على الأجوبة"[4].

إن اعتماد المساءلة في الفكر يعني الانتقال من الذات الخالصة إلى أوساع الآخر، فالذات وفق هذه النظرية لا يمكن لها أن تستقل، فهي في حالة انشباك دائم مع الآخر، وبتعبير ميشال ماير إنها "في حالة حاجة نهمة، لا تنضب، للآخر"[5].

ثم إن المساءلة/ الاستشكال تمنح للمعرفة ميزة التعدد، فالسؤال يولد خيارات متعددة في الجواب، وهذا الأخير ليس ناجزا قارا بل هو امتدادات لا تفتأ تنفتح وتتطور

---

(1) Manuel maria Carrilho: "Conséquences de la problématologie", Dans: Argumentation et questionnement, sous la direction de Corinne Hoogaert, P.U.F 1996, p. 75.

* يقول "جميل صليبا" في القضية Proposition، "كل قول فيه نسبة بين شيئين بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب. وفي كل قضية عند الذهن أربعة أشياء وهي المحكوم عليه والمحكوم به، والنسبة الحكمية والحكم. وإدراك هذه الأربعة تصديق"، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1414هـ - 1994، الجزء الثاني، ص 196-195.

(2) Michel Meyer: De la problématologie, op. cit, p. 236.

(3) Michel Meyer: "Pour une anthropologie rhétorique", op. cit, p. 138.

(4) Michel Meyer: De la problématologie, op. cit, p. 305.

(5) Ibid, p. 354.

وتنتج البدائل. لذلك فوحده الاستشكال يمنح "للثقافة المعاصرة تعدد المعاني"[1].

تقوم المساءلة إذن على اعتبار الآخر والتعدد، لذلك فهي تشغل بامتياز الفعالية الحوارية. إذ مع تناوب السؤال والجواب، والإقرار والاعتراض، ومع نشاط الاختلاف تتطور المناقشات ويكون الحديث المشترك، يقول ميشال ماير: "حيثما يوجد سؤال كامن، فثمة نقاش"[2].

3- اللغة والاستشكال في مشروع ميشال ماير

يربط ميشال ماير بين السؤال والمشكل Le problème، حينما يعتبر بأنهما يتماهيان. أو وفق تعريف "بسيكولوجي"، إن "كل سؤال هو حاجز أو صعوبة أو ضرورة اختيار، فهو بالتالي نداء إلى اتخاذ قرار"[3]. ويعتبر ميشال ماير أن المساءلة خاصية متأصلة في اللغة تطبع كل الإنجازات التلفظية، وكل المبادلات الكلامية. فما دام "اللوجوس" مكونا من أسئلة وأجوبة، فهذا يعني حسب ميشال ماير أن "النشاط الخطابي ليس إلا مسارا للمساءلة"[4].

فاللغة إثارة للسؤال ومعالجة لما هو مشكلي. وهذه الخاصية الاستشكالية هي الإطار العام للنشاط البشري، فالناس يعيشون ويتحركون بارتباط مع المشاكل والأسئلة التي تطرح عليهم أو يلاقونها، مما يجعل من "استعمال اللغة معالجة/ حلا للمشاكل"[5].

وانسجاما مع هذا التصور الذي بنى عليه ميشال ماير رؤيته للعلم والأدب والأخلاق والبلاغة، تصبح "الوحدة الأساسية للغة هي الزوج: سؤال/ جواب"[6] ولا اشتغال إلا به.

4- الحجاج ضمن مشروع ميشال ماير

في تحديده للحجاج، استند ميشال ماير إلى الإرث الأرسطي وإسهامات

(1) Michel Meyer: "Pour une anthropologie rhétorique", op. cit, p. 131.
(2) Michel Meyer: De la problématologie, op. cit, p. 259.
(3) Michel Meyer: Logique, langage et argumentation, Paris, Hachette, 1982, p. 124.
(4) Michel Meyer: De la Problématologie, op. cit, p. 238.
(5) Michel Meyer: Logique, Langage et argumentation, op. cit, p. 122.
(6) Ibid, p. 123.

بيرلمان، إلا انه لم يقف عند مجرد الاستلهام، بل كيف خلاصات هاتين المرجعيتين بما ينسجم ونظريته الجديدة في المساءلة والاستشكال. وهكذا فإذا كان أرسطو قد حدد مقومات الإقناع الخطابي في ثلاث:

- الإيتوس ETHOS أي خصال الخطيب وأخلاقه.
- الباتوس LE PATHOS أي المشاعر والأحاسيس والانفعالات المثارة لدى الجمهور.
- اللوغوس LOGOS المتعلق بشكل الخطاب المنذور للاستمالة والتأثير، فإن ماير عدل هذه الأركان ليركزها أكثر في تصنيف آخر (الأخلاق - السؤال - الجواب). والركنان الأخيران يمثلان الاستشكال. وإذا كان بيرلمان انشغل أكثر بمبدأ الانخراط Adhésion، فإن ماير انشغل أكثر بمبدأ المفاوضة Négociation.

وحسب ماير فإن البلاغة تشغل مساحة مركزية في التصورات التي يشكلها الإنسان عن نفسه وعن العالم، لأن موضوعها هو أوجه استعمال الخطاب المنذور "لإثارة الإعجاب كما للإقناع، وللترافع كما للتداول، وللاستدلال كما للافتتان"[1]، لذلك شدت إليها الانتباه منذ القديم، قبل أرسطو، وهي تستمر إلى اليوم في ممارسة جاذبيتها. فالسياسة تستدعيها، وهواجس السعادة والعدل والمنفعة التي تقود المجتمعات لا تفتأ تتطلبها.

بهذا المعنى، فالبلاغة لا تكون إلا حجاجية، لأنها ترتبط بـ"المحتمل" والخلافي في المجال الإنساني، أي بالقيم الأخلاقية والاجتماعية، بتصورات الناس ومواقفهم وتناقضاتهم ومواضعهم المشتركة. إن الناس "يتواجهون ويتعارضون، أو على العكس يبحثون عن مكان [أو معنى] مشترك يسعهم جميعا ويبدو لهم مقبولا"[2]. ومهمة الحجاج أن يشتغل في خضم هذا التواصل الإنساني. وهو يتكون بالسؤال والاستشكال، ويتغذى منهما. إن الناس حينما يتكلمون يسائلون ويستشكلون، أي يحاججون. وحجاجهم هذا يثير المناقشة ويطلق دينامية البحث، فتنفرز بدائل عديدة لمعالجة السؤال/ المشكل، لتتناقض المواقف أو تتقارب. فكل

(1) Michel Meyer: Introduction à Aristote, Rhétorique, op. cit, p. 5.

(2) Ibid, p. 6.

بحث في سؤال مثار تنجم عنه مواجهة حجاجية، تشتغل فيها آليات الإقناع والتأثير، ولذلك عرف ماير الحجاج أيضا بكونه "جهدا إقناعيا"[1].

وإذا كانت المساءلة ترسم المسافة بين الذوات المتخاطبة، فإن الحجاج حسب ماير هو مفاوضة لهذه المسافة، أي سعي إقناعي إما لمحوها بدفع المختلف ليغدو مشتركا، أو لتوسيعها بتأجيج التناقض وتعميق الاعتراض.

إن رهان الحجاج مفاوضة المسافة، والتي تطبع لزوما كل مواجهة اقتناعية، إنها في صلب قرارات الناس ومواقفهم. إذ مع "تهاوي الموضوع الكانطي الخالص، فإن الناس لم يعودوا إلا ناسا، وليسوا متعالين عن التاريخ. لم يعد هناك إلا أفراد مختلفون، مرة متنافسون ومرة منسجمون، ولكنهم في كل الأحوال مرغمون على التفاوض حول اختلافاتهم للعيش المشترك"[2].

هكذا يصبح الحجاج بما هو مفاوضة، البديل الإنساني عن العنف، وهو المقياس المختبر لمدى الاستعداد للقبول بالآخر، وبمغايرته للذات. يصبح الحجاج القدر المصاحب لكل من اختار العيش المشترك، لأنه الدليل على "التحمل المتبادل"[3].

وفي استراتيجية الحجاج التي بناها ماير، لا تغيب الصورة البلاغية. فهذه الأخيرة بحكم طابعها المجازي، تبعد الجواب الصريح، وتخلط مسارات المعنى، مما يستوجب البحث عن إمكانيات أخرى وراء ظاهر السؤال. فمع الضمني يتوسع التأويل، وتتعدد الأسئلة/ الأجوبة. وكلما توسع التأويل قوي الحجاج. فعبارة "ريتشارذ أسد"، التي يعتمدها ماير لتوضيح اشتغال المجاز في الحجاج، لا تفيد الحقيقة في ظاهرها. ولذلك، تولد أسئلة عديدة لدى المخاطب حول مقصدية المتكلم، وأسباب الربط بين "ريتشارذ" و"الأسد"، ليتدخل التأويل. والتأويل استدلال، وفي ذلك يقول ماير "أن تؤول يعني أن تستدل"[4].

---

(1) Michel Meyer: Logique, Langue et argumentation , op. cit, p. 136.

(2) Michel Meyer: Introduction à Aristote, Rhétorique, op. cit, p. 40.

(3) Michel Meyer: "les fondements de l'argumentation", Dans:Argumentation et questionnement..., op. cit, p. 18.

(4) Michel Meyer: Introduction à Aristote, Rhétorique, op. cit, p. 47.

المبحث الرابع:

جاك موشلر وحجاجية الحوار

1- إضاءة حول مشروع جاك موشلر الحجاجي

تتحدد الأسس المرجعية التي حكمت مؤلف جاك موشلر Jacques Moeschler **الحجاج والمحاورة، عناصر من أجل تحليل تداولي للخطاب** في:

- أعمال مدرسة جنيف التي تحلقت حول إيدي رولي Eddy Roulet، واشتغالها المركزي على المحاورة.
- أعمال فلاسفة اللغة أوستن Austin 1970، وسورل Searle 1972، وغرايس Grice 1979.
- أعمال أنسكومبر Anscombre وديكرو Ducrot، أساسا عملهما **الحجاج في اللغة**، الأمر الذي يكشف عن الاختيارات التداولية والحجاجية التي يتوسلها المؤلف في مقاربة موضوعه. ويتحدد هذا الموضوع في تحليل الخطابات الحوارية الشفوية. فإذا كان اللسانيون قد تلافوا غالبا الخطابات الشفوية إما لتعقيدها أو عدم انتظامها[1]، فإن جهود مدرسة "جنيف" التي ينتمي إليها موشلر باتجاهها نحو الخطابات الحية، قد أثبتت بأن الحوار الشفوي ليس أقل انتظاما. يقول موشلر: "أعتقد فعلا، وأتمنى كذلك أن تكون التحليلات المختلفة للحوارات المبثوثة في هذا المؤلف قد أقنعت القارئ أن المشاركين في الحوار الشفوي يخضعون لعدد معين من القواعد العامة، والتي يصبح ممكنا، انطلاقا منها، تطوير نحو للخطاب أكثر انتظاما"[2].

إن الحوار كما يعرفه موشلر هو نوع من التفاعل اللفظي، يلزم فيه المتخاطبون بـ"أن يجادلوا، وأن يسجلوا نقاطا على بعضهم البعض وأن يفاوضوا للوصول أو

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 187.

(2) Ibid.

عدم الوصول إلى حلول"[1].

وحسب موشلر فإن المكونات المشكلة لأي حوار هي ثلاث:[2]

أ - المبادلة L'échange

ب -المداخلة L'intervention

ج - فعل اللغة/ الكلام L'acte de langage

فالمبادلة تتكون على الأقل من مساهمتين حواريتين (دورين للكلام) لمتكلمين مختلفين. فهي إذن مكون مركب.

أما المداخلة فهي أكبر وحدة "مونولوجية" مكونة للمبادلة. وهي تتكون من أفعال الكلام. وتكون إما مركبة إذا تعددت فيها هذه الأفعال، أو بسيطة إذا اقتصرت على واحد منها. وهي على العكس من المبادلة، تشكل المساهمة الخاصة لمتكلم معين في سياق مبادلة معينة.

أخيرا، فعل اللغة/ الكلام، وإذا كان هذا الأخير في التقليد التداولي إما سؤالا أو التماسا أو اعتذارا... فإنه يصبح داخل الحوار أصغر وحدة مونولوجية مشكلة للمداخلة.

2- المبادلة في الحوار

ويميز موشلر في بنية المبادلات بين نوعين:

- مبادلات إقرارية (تأكيدية) Confirmatifs
- مبادلات رأبية (ترميمية) Réparateurs

فالمبادلات الإقرارية وهي التي تصادق وتثبت، تناسب مبادلات فتح أو إغلاق التفاعل أساسا، وتتكون من مداخلات لها وظائف تعبيرية مثل التحية. وهذا ما يفسره المثالان التاليان:

- المتدخل الأول: صباح الخير.
- المتدخل الثاني: صباح الخير.

أو:

(1) Ibid, p. 14.

(2) Ibid, pp. 81-83.

- المتدخل الأول: كيف حالك؟
- المتدخل الثاني: بخير، شكرا، وأنت؟

وغالبا ما تغلق هذه المبادلات الإقرارية بتبني المخاطب لسلوك مماثل لسلوك المتكلم. والمبادلات الإقرارية تظل محكومة بمواضعات التعامل وطقوسه بين الأفراد وبالروابط الاجتماعية.

إلى جانب المبادلات الإقرارية، يميز موشلر نوعا آخر من المبادلات، يسميها رأبية ،Réparateurs وفكرة الرأب تنبني على مبدأ ترميم انتهاك ألحق بمجال الآخر، وتصحيح أية إساءة مجالية مسته. فمثلا: بعد أن داس الشخص (أ) على قدمي الشخص (ب)، يقول (أ): أستسمح، يجيب (ب): لا داعي لذلك، لم تقصد.

إن فعل الاعتذار مكن الشخص (أ) من ترميم إهانة مجالية سببها سوء تصرفه. ومن ثم، فإن هذا الفعل الترميمي يضطلع بوظيفة إقرار التوازن التفاعلي بين المشاركين في المبادلة ويمكنهما من المواصلة.

وإذا كان النمط البسيط لتنظيم المبادلات، هو نمط المبادلات المتتابعة Linéaires، فإن المحاورات قد تكتنفها أنواع أخرى من المبادلات منها: الاعتراضية Enchâssés، وهي من المبادلات الأكثر تواترا وشيوعا. وهي تشكل "المبادلات بين قوسين" échanges parenthétiques، ويعرفها موشلر بوصفها: "مبادلة صغرى تندرج ضمن مبادلة أخرى"[1]، كما يدلل عليها بالمثال التالي:

- A1: Quelle heure est-il? — كم الوقت الآن؟
- B1: vous n'avez pas de montre? — أليست لديك ساعة؟
- A2: Non — لا أملكها
- B2: Il est midi — إنها تشير إلى منتصف النهار
- A3: Merci[2] — شكرا

فالمبادلة (B1-A2) اعترضت المبادلة الأصلية. والمبادلة الاعتراضية قد تكون تمهيدا للجواب أو تأجيلا له بالتدقيق في سؤاله.

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 84.

(2) Ibid.

وضمن بنية المبادلة كذلك، يبرز نوع آخر هو "المبادلات السلبية"[1] échanges négatifs. وهي كذلك لأن المداخلة الثانية فيها، أي الجواب، تكون سلبية (نافية). والجواب النافي من شأنه أن يخلق إنعاشا لأوصال المحاورة أو انطلاقة جديدة لعناصرها.

3- المداخلة في الحوار

يميز موشلر في المداخلة المركبة بين مكونين:

أ - الفعل الموجه l'acte conducteur، وهو المكون الذي يمنح التفاعل قيمته التداولية المهيمنة أو بتعبير موشلر "ما يمنح المعنى العام للمداخلة"[2].

ب -الفعل/ الأفعال التابعة (المساعدة) وهي الأفعال التي يستعين بها المتكلم لتأكيد أو لتبرير الفعل الموجه والمحاجة لصالحه.

وعلى خلاف الأفعال التابعة، فإن الفعل الموجه يشكل مكونا غير قابل للإلغاء في المداخلة Non supprimable.

إن المداخلات تضطلع في سياق المحاورة بنوعين من الوظائف:

- **وظائف ابتدارية** وهي "تميز المداخلات التي تطرح إلزامات معينة على المخاطب"[3]. وضمن الوظائف الابتدارية يكون طلب الخبر وطلب الإقرار والالتماس والعرض والدعوة والأمر...
- **وظائف ارتدادية (ركسية)**[4] وهي ترتبط بالمداخلات الارتجاعية. وتشكل أساسا القسم المولد للأجوبة، وتحدد نوع الاستجابة/ الإرضاء satisfaction لإلزامات الابتدار.

وتنقسم الوظائف الارتدادية إلى قسمين كبيرين:

أ - وظائف ارتدادية موجبة، تسجل اتفاق المخاطب.

ب -وظائف ارتدادية سالبة تسجل اختلاف/ معارضة المخاطب ورفضه.

---

(1) Ibid, p. 87.

(2) Ibid, p. 188.

(3) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 94.

(4) Ibid.

4- قواعد الحوار

يحدد موشلر قواعد الحوار في ثلاث:

- قواعد تفاعلية.
- قواعد بنيوية.
- قواعد إشراط تسلسلي.

فالقواعد التفاعلية يحددها في المبادئ ذات الطبيعة الاجتماعية، والتي يضمن الوفاء بها، مسارا جيدا للطقس الحواري. ويلخص موشلر هذه القواعد في الإقرار بأن "أي محاورة تلزم المشاركين فيها بالاستجابة لطقوس الفتح والإغلاق والرأب، وهي الطقوس التي تقتضي احترام مجال الآخر وعدم تهديد وجهه Face"[1]، علما بأن مسار الحوار يحتمل فقدان الوجه أو ربحه. ومفهوم الوجه، يعني أن كل محاور يرغب من جهة في حماية مجاله/ وجهه، ومن جهة أخرى في الحصول على تقدير الآخر له.

أما القواعد البنيوية structurelles فهي التي تحكم جريان المحاورة، علما بأن هذه الأخيرة تتنامى بالتأويل المتبادل وبالبناء التسلسلي. وحسب موشلر فـ"كل محاورة تطرح إشراطا مزدوجا، إذ تلزم المتحاورين بمواصلة التفاعل من جهة، كما تلزمهم من جهة أخرى بإغلاقه"[2]. والشرط الكافي لإغلاق المبادلة هو الانسجام الحجاجي للمداخلة الارتدادية مع المداخلة الابتدارية، ويسمي موشلر إغلاق المبادلة بـ"استراتيجيات الحل" [3]Stratégies de résolution.

وطبقا لمبدأي التأويل والإرضاء Satisfaction، فإن أي مكون في المحاورة يعد مولدا للتسلسل ومنخرطا في علاقات مع مكونات أخرى. وهذا "الإشراط التسلسلي"[4] هو ما يحدد مقدار التنظيم المحكم للمتتالية الحوارية أي طابعها اللاحم والمنسجم cohérent et cohésif. ويحدد موشلر أنواعا أربعة للإشراطات

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 112.

(2) Ibid, p. 113.

(3) Ibid.

(4) Ibid, pp. 115-117.

التسلسلية:

- **الشرط التيماتي (الموضوعاتي)**، وهو يفرض على المكون الارتدادي الالتزام بنفس الموضوع الخطابي للمكون الابتداري. وهذا الشرط يقتضي علاقات التكرار والإحالة والانسجام...
- **شرط المحمول القضوي**، وهو يفرض على المكون الارتدادي أن يرتبط إما بعلاقة تناقض أو استدلال أو ترادف في الدلالة مع المكون الابتداري.
- **الشرط التكلمي**، وهو يفرض على المكون الارتجاعي الالتزام بوظيفة تكلمية، تناسب ما تطلبه نظيرتها في المكون الابتداري. فمثلا فإن وظيفة تكلمية ابتدارية، تطلب خبرا أو معلومة، تستدعي وظيفة تكلمية ارتجاعية ذات صبغة جوابية. والجزم في الابتدار، يقتضي التقويم في الارتجاع. ويلاحظ موشلر بأن هذا الإرضاء قد يتأجل بظهور مكونات جديدة، حينما يتلو سؤال سؤالا مثلا...
- **شرط الاتجاه الحجاجي**، وهو يفرض على المكون الارتجاعي أن يكون منسجما حجاجيا مع المكون الابتداري، حتى يتأتى الخلوص إلى الحل أي حالة الإرضاء.

5- الحجاج في المحاورة

إن أي تحليل للمحاورة لا يمكنه الاستغناء عن نظرية الحجاج، لأنه "يصادف على الدوام وقائع تنتمي للحجاج"[1]، بل إن المجال المثالي لاشتغال الحجاج هو المحاورة. وينشط الحجاج بشكل بارز على صعيد بنيتي: المداخلة والمبادلة في المحاورة.

1.5- الحجاج في بنية المداخلة

إن ما يحدد تنظيم المداخلة ويقود نشاطها الحجاجي هو مبدأ "عدم التناقض" بمدلوله الحجاجي وليس المنطقي. وصيغة هذا الأخير عند موشلر هي:

- "ليس من الممكن الدفاع عن نتيجتين متعارضتين اعتمادا على نفس الحجة.

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 119.

- حجتان متعارضتان لا يمكنهما خدمة نفس النتيجة"[1].

وهذا المبدأ يحققه الانسجام الحجاجي للمداخلة، وهو انسجام تكفله:

- استجابة المداخلة للتعليمات الحجاجية التي تقتضيها الروابط فيها، وهذه الروابط تختلف حسب المقصد الحجاجي. ففيها روابط التفسير والتبرير والإضراب والإثبات والنفي.. وهذه الروابط فيها ما يقدم الحجج وفيها ما يقدم النتائج.
- إدارة المداخلة لتناقضاتها، بحيث يجب أن تسعى المداخلة لبناء انسجامها، فاسحة لحركة الخطاب مجال تدبير تناقضاتها والتخلص منها. وغير خاف أن الإخلال بهذا الشرط من شأنه أن "يثير أحكاما معيارية حول تهافت الخطاب وعدم انسجام قائله"[2].إن حركة الخطاب في بنائها وترابطها وتحولها هي الكفيلة بإدارة تناقضاته، لأنها سيرورة Processus، ونشاط استراتيجي "يترجم الجهد المقصدي لمتكلم ما لبلوغ أهداف تفاعلية اعتمادا على وسائل خطابية"[3].

وهكذا فإن أي مداخلة مركبة، متضمنة كما سبق للعديد من أفعال اللغة/ الكلام، تشتغل بوصفها مكونات حجاجية، فيها الحجة والاتجاه الحجاجي والنتيجة[4].

إن ما يسعى موشلر لإثباته، هو أن الحجاج في المداخلة ينبني على صيغ التنظيم الداخلية للخطاب، أي حركاته من إضراب واستخلاص واستنتاج[5].

2.5- الحجاج في بنية المبادلة

يتحقق الحجاج في أية مبادلة حوارية عبر ظاهرتين هما:

- الإغلاق Clôture
- التوسيع Expansion

(1) Ibid, p. 121.
(2) Ibid, p. 131.
(3) Ibid, p. 135.
(4) Ibid, p. 139.
(5) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 149.

ومن ثم، فإن أي تفاعل حواري يعكس في جريانه، تأرجحا دائما، بين قوتين متناقضتين: قوة جاذبة (الإغلاق)، وقوة طاردة (المواصلة). وحسب موشلر فإن "الإغلاق يتحقق بحصول الاتفاق Accord، أما التوسيع فتحققه المفاوضة Négociation"[1].

إن إحدى وظائف الحجاج في المبادلة الحوارية إتاحة الإغلاق، أي الدفع باتجاه تحقيق الانسجام الحجاجي للمداخلتين الأخيرتين. وحينما لا يتم إشباع هذا الشرط، تبرز استراتيجيات أخرى للبحث عنه، آنذاك تمنح المتواليات الحوارية المجال للتوسعات.

أ - الحجاج وإغلاق المبادلة:

إذا كان الدور المحوري للحجاج في المداخلة هو تحقيق الانسجام بين بنياتها، فإن دور الحجاج في المبادلة هو إنجاز التفاعل، و"توجيهه نحو الاكتمال"[2]. وهذه الفكرة يصوغها موشلر كما يلي: "حينما تكون الأطراف [المتحاورة] متفقة لا يبقى هناك ما يقال، ولكن عندما يكون هناك اختلاف، فالمناقشة تبقى سارية وممكنة"[3].

ب - الحجاج والتوسيع:

يميز موشلر بين ثلاثة أنواع من التوسيعات يعتبر أنها تترجم ظواهر هامة جدا لمعالجة الحجاج في الخطاب وهي[4]:

- التوسيع عبر التناقض Contradiction
- التوسيع عبر الإنعاش (إعادة الإطلاق) Relance
- التوسيع الموضوعاتي Thématique
- التوسيع عبر التناقض، ذلك أن المبادلات تتناسل وتتسلسل باختلاف المداخلات (مكونات تابعة ومكون موجه)، وبالاختلاف بين الابتدار والارتجاع... وإجمالا فالتوسع بالتناقض يعود لاختلاف المتلفظين.

(1) Ibid, p. 152.
(2) Ibid, p. 153.
(3) Ibid.
(4) Ibid, pp. 161-162.

- التوسيع بإعادة الإطلاق، وهو يتحقق بطريق تقييم سلبي لحصيلة جواب قدمه أحد المتحاورين. هذا الجواب غير المرضي يقود إلى "حجاج مضاد يرجئ إغلاق المبادلة"[1]. وقد يكون هذا التوسيع بتقنيات أخرى كالتلخيص والتركيب...
- التوسيع الموضوعاتي، وهو التوسيع الذي يتيح للبنيات التابعة تطوير مكون موجه سابق، بحيث تبرره أو تفسره أو تفصل فيه خادمة بذلك معناه.

3.5- الاتفاق والمفاوضة

إن الإطار العام الذي تتمظهر فيه الوقائع الحجاجية على صعيد المبادلة خاصة، وفي التفاعل الحواري عامة، يتحدد في الاتفاق والمفاوضة. فإذا كان الاتفاق إعلانا عن إغلاق المبادلة، وإذا كانت المفاوضة وسيلة لحصول هذا الاتفاق، فكيف يتم ذلك؟

- الاتفاق بوصفه شرطا لإغلاق المبادلة

يشكل الاتفاق عموما شرطا معياريا تفرضه المؤسسة الخطابية، لأنه "يقوم على مراعاة ضرورية لقانون الخطاب الذي يلزم ممثلي التفاعل اللفظي بالبحث عن الاتفاق، أو بعبارة ايديولوجية التسوية Consensus"[2]. والاتفاق حسب موشلر يصدر في الحوار عن الإقرار (المصادقة) وعن الانسجام الحجاجي. وما يجعله شرطا للإغلاق هو تحقيقه لملاءمات ثلاث:

أ. ملاءمة تفاعلية.

ب. ملاءمة تواصلية.

ج. ملاءمة استدلالية[3].

أ - تتعلق الملاءمة التفاعلية لمفهوم الاتفاق بما يمكن تسميته بالتوازن التفاعلي، فإذا اعتبرنا أن إرسال الكلام قد يشكل تهديدا لمجال الآخر أو صورته، فإن

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 169.

(2) Ibid, p. 171.

(3) Ibid.

"علامات الاتفاق والمواجهة تشكل وسيلة مثلى لاستعادة التوازن التفاعلي"[1].

ب -على صعيد آخر، إن مفهوم الاتفاق قد يؤشر فقط على ملاءمة تواصلية Pertinence communicative. وذلك أن نجاح أي تواصل "يستلزم اعتبار أقوال الآخر، ويقتضي علامات تبين هذا الاعتبار (...) فحالة: نعم اللغوية Phatique في المحاورة الهاتفية، والضحك في الحوار اليومي تشكل أمارات دالة على هذه الظاهرة"[2]. إن الاتفاق التواصلي يقتضي إشعار الآخر بأنك تسمعه وبأنك تفهم ما يريد.

ج - أخيرا إن أي حديث عن الاتفاق يعني الإحالة على خلفية عامة مشتركة بين المتحاورين، فكل "حوار يتطلب درجة دنيا من الافتراضات المشتركة حول العالم"[3]، تجعله مقبولا أو مبررا.

- المفاوضة بوصفها شرطا لحصول الاتفاق[4]

إن الاتفاق يتحقق بالمفاوضة وهي عند موشلر أنواع:

أ - **مفاوضة استباقية** Anticipée، ويقصد بها استراتيجية حجاجية تقوم على استباق الحجج المضادة التي يمكن أن يطرحها المخاطب، مما يدفع هذا الأخير إلى التقيد بالطرح المقدم من لدن المتكلم لا البحث عن الحجة المضادة.

ب -**مفاوضة حدثية** Factuelle، وتقتضي إقرار الاتفاق حول عدد معين من الوقائع الحاسمة لمواصلة التفاعل، وهي تنشط أساسا في المعاملات التجارية. إذ أن مواصلة الحوار تتحدد باتفاق واقعي/ حدثي حول ثمن السلعة.

ج - **مفاوضة تفاعلية** Interactionnelle وتتعلق بالصور التي يحاول كل طرف من المتحاورين رسمها عن نفسه، وتركيزها لدى الآخر أثناء تفاعلهما. فمثلا في حوار بين البائع والمشتري، يحاول كل واحد منهما أن يقدم نفسه كخاسر ليقنع الآخر بالثمن المناسب له.

د - **مفاوضة ميتا - خطابية**، هذه المفاوضة تقوم على اعتماد إشارات من طرف

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 171.

(2) Ibid, p. 172.

(3) Ibid.

(4) Ibid, pp. 172-176.

أحد المتحاورين، تمكن من التأويل الرجعي لمداخلة ما. مثلا ما يحدث في النـدوات، حيـث يذيـل متدخـل معين سـؤاله بالقول هذا ليـس نقدا إنه مجرد سؤال أطرحه، أو كقوله هذا ليس سؤالا، ولكنها مجرد ملاحظة... وقد اعتبر موشلر هذه الوظيفة وقائية Préventive.

هـ - **وظيفـة ميتا - تفاعليـة**،Métainteractionnelle وتتعلق هذه المفاوضة بحقوق وواجبات المشاركين في تفاعل حواري معين. إن الأمر يرتبط بتحديد ما هو مطلوب أو مسموح به أو ممنوع في المحاورة. وهكذا فصيغ مثل: "ليس لك الحق في قول أشياء من هذا النوع"، تشكل روابط للمفاوضة الميتا - تفاعلية. وعليه، فإن المفاوضة لا تتيح فقط الوصول إلى الاتفاق، ولكنها كذلك تقوم المسارات الحوارية الضرورية لمواصلة المبادلة أو إغلاقها.

بـدون مفاوضـة إذن، يتحـول الحـوار إلـى "مجـرد مونولـوج"[1]، حيث تلغى وظيفة المخاطب أو على الأقل تختزل في "مجرد استقبال الخطاب"[2].

---

(1) Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours, op. cit, p. 176.

(2) Ibid.

خاتمة الباب الأول

لقد ارتبطت أهم الإسهامات النظرية الخاصة ببلاغة الإقناع في السياق الغربي القديم بالسوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو طاليس. وقد سخر السوفسطائيون، بالارتباط بحياة المؤسسات الديمقراطية القديمة في اليونان، القول لتحقيق الإقناع وأسر الجموع، وعبروا به عن حرية الرأي واختلافه، وعن مساحات الاحتمال الواسعة في مجالات التفاعل الإنساني كما استهدفوا من خلاله غايات سياسية وتعليمية.

أما أفلاطون فبانتصاره لدواعي النظام والخضوع، ودفاعا عن العقل والحقيقة والأخلاق، سيواجه حجاج الظن والرأي والمنفعة الذي شاع لدى السوفسطائيين. ذلك أن حلمه بدولة الفلاسفة دفعه إلى ربط الإقناع بغايات الخير والعدل. ومن ثم ألح على ربط الخطابة بالفلسفة حتى تتصل بالمثل والفضيلة. مع أرسطو طاليس، ستتحقق لبلاغة الإقناع شروط النضج، بحيث حول الإسهامات السابقة عليه في هذا المجال بشكل نقدي ليبني "أورجانونه" الحجاجي، الذي تتضافر فيه الأبعاد الجدلية والخطابية والتبكيتية.

في التراث العربي الإسلامي، سيهتم الجاحظ، في سياق حضاري ساخن، وبسند كلامي مذهبي، باستراتيجية التبليغ ونجاعة الخطاب. إذ ركز مشروعه البلاغي على الإفهام والإقناع وما يقتضيانه من مراعاة للمقام وتكييف للغة خدمة للتواصل والتأثير. وبميول مذهبي واضح، سيبني إسحاق بن وهب مشروعه في البيان المعرفي، إذ القول عملية/ عقلية تنهض على الحجة، وتقتضي الاعتقاد والاعتبار. وعلى خلفية استدلالية، سيقيم السكاكي في **مفتاح العلوم**، مشروعه لبلاغة تداولية، ومقصدية، تهتم بالمقام والمستمع.

وفي السياق الغربي الحديث، أعاد بيرلمان إحياء الإقناع الذي طمرته الفترات الطويلة لسيادة بلاغة الأسلوب. وقد استند هذا الباحث في مشروعه إلى أرسطو

طاليس، وعينه على التمظهرات الجديدة للبلاغة (الدعاية والمناقشات السياسية والفكرية...)، كما هدف إلى المساهمة في نقد العقلانية الغربية تفاديا للرعب والتسلط. إن **مصنف في الحجاج** لبيرلمان يشكل كذلك جردا لأهم التقنيات التي تمكن من انخراط العقول فيما يقدم لها من آراء وأفكار.

أما ديكرو وأنسكومبر، فقد استندا إلى التداولية، ليعتبرا بأن معنى الأقوال لا ينفصل عن طابعها الحجاجي، ولذلك بلورا مفاهيم عديدة، ذات فعالية تطبيقية، مثل: (العلاقة الحجاجية/ القوة الحجاجية/ القرائن الحجاجية/ السلم الحجاجي...) وهي مفاهيم تكشف عن النشاط الداخلي للحجاج في الخطاب.

وضمن مشروع فلسفي لنقد العقلانية الغربية بنزوعاتها الديكارتية والكانطية، سيعتبر ميشال ماير بأن حقلا إنسانيا محملا بالاستشكال والسؤال وبالمحتمل والخلافي، لا تناسبه إلا بلاغة إقناع تقوم على السؤال والمفاوضة، مفاوضة المسافة بين الأطراف من أجل عيش مشترك وتحمل متبادل.

واستنادا إلى المباحث التداولية كذلك، سيركز مشروع موشلر على الطبيعة الحجاجية للحوار، إذ انتهى إلى أن الخاصية الإقناعية تميز المبادلات والمداخلات في أي محاورة. هذه الأخيرة التي تتوسع أو تغلق تبعا لهذه الخاصية، وتبعا لحصول الاتفاق أو استمرار المفاوضة.